Al-Daleel
مؤسسة الدليل
للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution
for Doctrinal Studies

Secularistic Views on the Quran's Comprehensiveness Dimensions... a Critical Study

Ahmed al-Hashemi
Ph.D. in Comparative Interpretation (Tafsir), Aalul-Bayt University, Afghanistan.
E-mail : hashemy.sa.ahmad@gmail.com

Summary

The study of the Quran's comprehensiveness is one of modern studies concerning the Qur'anic sciences and interpretation. The Quran's comprehensiveness means that the Holy Qur'an covers all aspects of life, whether political, social, economic or others. On the other side, there is secularism that rejects this fact. Secularists have distorted the Qur'anic concepts and meanings and taken them away from their purposes, just to promote secularism in Muslim societies. After proving that the Qur'an covers all aspects of man's life, we have discussed in this article the views of secularism with criticism and analysis, refuting their claims that religion and the Holy Qur'an have had nothing to do with social and political rules. The secularistic view that denies any interference of religion in worldly matters is certainly false. It is not consistent with the universal teachings of the Qur'an concerning worldly affairs, and the effective role of those teachings in man's life and his seeking to gain happiness and perfection. The Holy Qur'an mentions the principles of social relations and general basics and rulings of political system, and this indicates its comprehensiveness of both social and political dimensions. On the other hand, the interpretation of the Qur'anic verses by secularists for proving the separation of religion from society, politics, and government, is either an interpretation by one's own opinion, or an interpretation without paying any attention to the rational and verbal indications or evidences.

Keywords: secularism, views of secularism, comprehensiveness of the Qur'an, universality of the Qur'an.

Al-Daleel, 2023, Vol. 5, No. 4, PP.32-63
Received: 20/01/2023; Accepted: 10/02/2023
Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

©the author(s)
CC BY NC

Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

آراء العلمانيّة حول أبعاد شموليّة القرآن.. دراسة نقديّة

أحمد الهاشمي

دكتوراه في التفسير المقارن، جامعة آل البيت عليهم السلام، أفغانستان. البريد الإلكتروني: hashemy.sa.ahmad@gmail.com

الخلاصة

شمولية القرآن خصوصية من خصائصه التي تبحث في العصور الحديثة في علوم القرآن وتفسيره، وهي بمعنى شموله لجميع جوانب الحياة سياسيةً كانت أم اجتماعية أم اقتصادية وغيرها. وفي مقابلها قول العلمانية التي ترفض شموليته في جميع المجالات الحياتية؛ إذ إنّهم حرّفوا مفاهيم القرآن ومعانيه وصرفوها عن مقاصدها ليصحّحوا رؤيتهم ويطبّقوها في المجتمع الإسلامي. على هذا الأساس يحظى هذا البحث بأهمّية كبيرة في بيان شمولية القرآن وإثباتها بالأدلّة العقلية والنقلية، وفي الوقت نفسه نقد آراء العلمانية وأدلّتهم. ففي هذا البحث وبعد إثبات شمولية القرآن لجميع جوانب حياة الإنسان، ناقشنا آراء العلمانية بالنقد والتحليل، وأبطلنا مزاعمهم في عدم تعرّض الدين والقرآن للقواعد الاجتماعية والسياسية. فالرؤية العلمانية التي ترفض أيّ تدخّل للدين في المسائل الدنيوية رؤية باطلة، ولا تنسجم مع التعاليم القرآنية الكلّية المرتبطة بالشؤون الدنيوية، وما لتلك التعاليم من دور فعّال في حياة الإنسان ووصوله إلى السعادة وكماله المنشود، فإنّ ذِكر القرآن لأصول العلاقات الاجتماعية ومقوّماتها، وبيانه للأسس والأحكام العامّة للنظام السياسي، يدلّ على شموليته لكلا هذين البعدين الاجتماعي والسياسي. ومن جانب آخر، فإنّ تفسير العلمانيين للآيات القرآنية في إثبات فصل الدين عن الاجتماع والسياسة والحكومة، إمّا تفسير بالرأي، وإمّا تفسير من دون الالتفات إلى القرائن اللبّية واللفظية.

الكلمات المفتاحية: العلمانية، آراء العلمانية، شمولية القرآن، جامعية القرآن.

مجلة الدليل، 2023، السنة الخامسة، العدد الرابع، ص. 32 - 63
استلام: 2023/01/20، القبول: 2023/02/10
الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث
© المؤلّف
CC BY NC

المقدّمة

إنّ الله سبحانه وتعالى مـنّ على عبـاده بـنزول الـوحي والكتـب السـماوية وإرسـال الرسـل؛ ليبيّنـوا تعاليمـه لأجـل هدايـة الإنسـان وإيصـاله إلى أعلى درجـات الكمـال والسـعادة. ولمّـا كانـت الحيـاة البشريـة في مرحلـة التكامـل والتطـوّر مـن حيـث الاحتياجـات المادّيـة والمعنويـة؛ أنـزل الله جلّ جلاله الرسـل لهدايـة الإنسـان في مسـيرة تكاملـه. وأنـزل أيضًـا ديـن الإسـلام بوصفـه خاتـم الأديـان وأكملها كمـا صرّح الله تعـالى بقـولـه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [سورة المائدة: 3]، كمـا أرسـل نبيّه صلّى الله عليه وآله بوصفـه خاتـم الأنبيـاء وأكملهـم وأفضلهـم: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [سورة الأحزاب: 40]. وكذلـك أنزل كتابـه القرآن الكريم بوصفـه أكمـل الكتـب السـماوية. كمـا نـصّ على شـموليته لـكلّ التعاليـم المرتبطـة والدخيلـة في تحقيـق الهدايـة البشريـة بقـولـه: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [سـورة النحـل: 89].

وقـد نشـأت أفـكار وطـرق ومـدارس منهـا العلمانيـة، وتـمّ تقديمهـا بوصفهـا الطريـق الوحيـد لحـلّ المشـكلات الـتي يعيشـها المجتمـع البـشري.

إنّ شـمولية القـرآن تعـني تغطيتـه لجميـع جوانـب الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة، ولمّـا كانـت تقابـل الفكـرة العلمانيـة القائلـة: إنّ التعاليـم القرآنيـة لا تغطّـي ولا تسـتوعب جميـع جوانـب الحيـاة؛ فـلا بـدّ مـن النظـر والبحـث في أدلّـة الشـمولية نفسـها، وشـمولية القـرآن لجانـبي الحيـاة الاجتمـاعي والسـياسي، وأدلّـة العلمانيـين في عـدم شـمولية القـرآن لهذيـن المسـارين مـن مسـارات الحيـاة.

المطلب الأوّل: تعريف المفردات

لا بدّ لنا قبل الدخول في الموضوع أن نمهّد الطريق ونبيّن بعض المباحث الضرورية كتعريف المفردات والعلل والخلفيات التاريخية لظهور العلمانية، وإثبات الشمولية.

1ـ العلمانية

هناك اختلاف في المعنى اللغوي للعلمانية التي هي ترجمة "secularism"الإنجليزية. وهذا الاختلاف ينشأ من الاختلاف في القراءة، فقال بعضهم إنّها «من العَلْم بمعنى العالم فهي العَلمانية، وربّما يكون اشتقاق العلمانية من العِلْم، فقد قام التنوير على العِلم» [الحنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفية، ص 562 و563]؛ فهي العِلمانية بكسر العين.

ولكن بالرجوع والنظر إلى تعاريف العلمانية في المعاجم [بريجانيان، معجم الاصطلاحات الفلسفية والعلوم الاجتماعية، ص 780] نجد أنّ الأقرب إلى الأذهان ـ كما قال بعض الباحثين ـ أنّها بفتح العين وليس بكسرها. [عادل ضاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، ص 38؛ أسدي نسب، القرآن والعلمانية، ص 24]

أمّا في الاصطلاح: فالعلمانية (secularism) مفهوم سياسي اجتماعي نشأ إبّان عصور التنوير والنهضة في أوربّا، عارض ظاهرة سيطرة الكنيسة على الدولة وهيمنتها على المجتمع ورأى أنّ من شأن الدين تنظيم العلاقة بين البشر وربّهم. [الكيالي، موسوعة السياسة، ج 1، ص 179]

أو هي مصطلح بمعنى بُعدِ الدولة واستقلالها عن المبادئ الدينية. ويمكن وضع مفهوم العلمانية من خلال تعريفها بأنّها «العقيدة التي تذهب إلى أنّ الأخلاق لا بدّ من أن تكون لمصالح البشر في هذه الحياة الدنيا، واستبعاد كلّ الاعتبارات الأخرى المستمدّة من الإيمان بالإله أو الحياة الآخرة» فهي ببساطة فصل الدين عن الدولة فصلًا تامًّا. [عبد الفتاح، الموسوعة الميسّرة للمصطلحات السياسية، ص 158]

ولعلّ أوضح تعريف عُرفت به العلمانية، ما ورد في مناقشات المجلس الفرنسي لدستور 1946، مؤكّدًا فيه أنّ «العلمانية هي حياد الدولة تجاه الدين، كلّ دين، فالعلمانية ليست عقيدةً إيجابيةً أو فلسفيةً تعتمدها الدول تبشّر بها وتعلّمها وتقف بها بوجه المعتقدات الدينية، بل هو موقف سلبي» [الجاسور، موسوعة علم السياسة، ص 262 و263].

وقد تعني العلمانية (النظر العلمي إلى العالم) التي تدلّ في النظام السياسي الأوربّي على ضرورة فصل سلطة الدين عن سلطة المجتمع (الدولة) فتكون سلطة الدين ورجاله في مجالها الخاصّ، وتكون سلطة المجتمع عامّةً على الدولة ومؤسّساتها. [أحمد خليل، معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية، ص 141 و142]

النتيجـة: يمكـن أن نسـتنتج ممّـا تقـدّم مـن التعاريـف اللغويـة والاصطلاحيـة للعلمانيـة، بأنّها الرؤيـة الـتي ترفـض تدخّـل الأمـور الإلهيـة والدينيـة في كلّ مجـالات الحيـاة الدنيويـة.

2ـ شمولية القرآن

في اللغـة: الشـمولية مأخـوذة مـن مـادّة شـمل (بفتـح الشـين وكسـر الميـم وفتـح الـلام) وإنّهـا تـدلّ على دَوَرَان الـشيء بالـشيء وأخْـذِه إيّـاه مـن جوانبـه. مـن ذلـك قولهـم: شَـمِلَهم الأمـرُ، أي غشـيتهم [الأزهـري، تهذيـب اللغـة، ج 11، ص 254]. وجـاء في كتـاب المحيـط: «الشَّـمُوْلُ: مـن أسْـمَاءِ الخَمْـرِ البـارِدَةِ؛ سُـمِّيَتْ لأنـهـا تَشْـمَلُهم بِرِيْحِهـا: أي تَعُمُّهـم» [الصاحب، المحيط في اللغـة، ج 7، ص 340]. إذن الشـمولية في اللغـة عبـارة عـن دوران الـشيء بالـشيء (دائـرة)، وهـو مـا يعـادل العمـوم.

أمّـا في الاصطـلاح فتعـني: «اشـتمال القـرآن على الإرشـادات الـتي لهـا دور أسـاسي في السـعادة الأبديـة والهدايـة المعنويـة للإنسـان» [ايـازى، جامعيـت قـرآن، ص 19]. أو «هي الحـدود الموضوعيـة ونطـاق القـرآن، والحـدود الموضوعيـة ترتبـط بنطـاق الموضـوعات و المسـائل، ويطلـق عليهـا (جامعيـة القـرآن) أيضًـا» [كريمـي، جامعيـة القـرآن الكريـم، ص 12 - 20]. أو بمعـنى: «جامعيـة القـرآن الكريـم للعقائـد والأخـلاق والأحـكام والتاريـخ والعلـم بشـكل كلّي وعامّ، وإيـكال التفصيـل إلى النـبيّ ﷺ» [رضايـى اصفهانـى، تفسير قـرآن مهـر، ج 12، ص 155]. أو بمعـنى «شـمول القـرآن للمعطيـات العلميـة والعلـوم الـتي لـم يدركهـا البـشر إلى الآن، وضـمّ هـذه المائـدة الإلهيـة الواسـعة لـكلّ مـا حـدث ويحـدث وسـيحدث» [جعفـري، تفسير الكوثـر، ج 6، ص 194]. أو هـو عبـارة «عـن الأمـور اللازمـة في وصـول الإنسـان إلى الأهـداف المرسـومة له (تربيـة الإنسـان) وتكامـل الفـرد والمجتمـع مـن الناحيـة المادّيـة والمعنويـة» [احمدى، القرآن في القـرآن، ص 38]. أو بمعـنى «توافـر القـرآن على الحقائـق المبيّنـة فى الكتـب السـماوية وزيـادة، وكلّ مـا يحتـاج إليـه النـاس في سـيرهم التكامـلي نحـو السـعادة المطلوبـة، سـواءٌ كانـت مـن الأسـس العقائديـة أو الأصـول العمليـة» [الطباطبـائي، القرآن في الإسلام، ص 33 و34]. وأمّـا المختـار مـن تعريـف شـمولية القـرآن، فـإنّ مـا ذكـره العلّامـة الطباطبـائي، هـو التعريـف الأنسـب بالبحـث.

المطلب الثاني: العلل والخلفيات التاريخية لظهور العلمانية

إنّ ظهـور العلمانيـة في عالـم الغـرب يعـود إلى أسـباب وظـروف مختلفـة منهـا: أسـباب دينيـة؛ وورد مـا يوهـم بفصـل الديـن عـن السياسـة في الإنجيـل [إنجيل يوحنـا، 18: 33 و36]. وفقـدان التعاليـم

التي تنظّم الحياة في الأناجيل المتداولة وتعاليم الكنيسة [القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجهًا لوجهه، ص 55 و56]، ومنها أسباب فكرية؛ كظهور النظريات العلمية الحديثة، والنظريات العقلية، ومنها أسباب اجتماعية [اسدى نسب، سكولاريسم از منظر قرآن، ص 43].

وظهورها في العالم الإسلامي يعود أيضًا إلى أسباب وظروف عديدة كالاستعمار والتشتّت والفرقة والحروب الداخلية، والتأثّر بالتكنولوجيا الغربية. [قدردان قراملكى، سكولاريسم در مسيحيت و اسلام، ص 118]

المطلب الثالث: إثبات شمولية القرآن

قبل أن ندخل في أصل الموضوع لا بدّ من إثبات الشمولية بالأدلّة النصّية والعقلية، ثمّ نذهب إلى أدلّة شمولية القرآن للبعدين الاجتماعي والسياسي؛ فقد ذكر المحقّقون أدلّةً مختلفةً لإثبات شمولية القرآن، ويمكن أن نقسّمها إلى نصّية وغير نصّية.

الفرع الأوّل: الأدلّة النصّية

وهي الأدلّة القرآنية التي تنصّ على الشمولية؛ كما تنقسم تلك الأدلّة إلى ما يدلّ عليها مباشرةً، وإلى ما يدلّ عليها مع واسطة عقلية دلالةً غير مباشرة.

القسم الأول: أهمّ الأدلّة المباشرة من الآيات

آية التبيان

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل: 89]، فالمراد من "الكتاب" بقرينة "نزّلنا" هو القرآن وليس فيه احتمال آخر [كريمي، جامعية القرآن الكريم، ص 223]؛ لأنّ كلمة "نزّلنا" تدلّ على النزول التدريجي، والقرآن هو الذي نزل على النبيّ ﷺ تدريجيًّا. و"التبيان" إمّا بمعنى "بيانًا بليغًا" [الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 628]، أو يدلّ على الكثرة [الآلوسي، روح المعاني، ج 7، ص 451]، ويستفاد من لفظة (تبيانًا) أنّ القرآن بنفسه مبيّنٌ بنحو مباشر؛ لأنّ المبيّن غير المباشر لا يتناسب مع المبالغة.

وكلمة "كُلِّ" و"شَيْءٍ" كلاهما مطلق، والسياق يدلّ على التقييد؛ ومن هنا اختلف العلماء والمفسّرون في إطلاق هذه الآية وتقييدها، فقال بعضهم بالإطلاق، ومعنى ذلك أنّ القرآن قد ذكر كلّ الأمور والأحكام والمعارف والعلوم [الغزالي، جواهر القرآن ودرره، ص 31]، وقوّاه السيوطي [السيوطي، معترك القرآن، ج 1، ص14؛ الإتقان، ج 2، ص 258 - 268]، ويظهر من العلّامة

الطباطبائي الشمولية الإجمالية أي: القرآن ذكر كلّ الأمور على سبيل الإجمال وترك التفاصيل للنبيّ وخلفائه [الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 1، ص 62]، كما ظهر منه الشمولية الإشارية؛ أي أنّ القرآن ـ على أساس بعض الروايات المرويّة وعلى فرض صحّتها ـ لا يشمل كلّ شيءٍ بحسب ظاهره ودلالته اللفظية، ولكن يمكن أن يدلّ ويشمل كلّ شيءٍ بالإشارات التي لا تفهمها العقول العادية. [المصدر السابق، ج 12، ص 325]

ويظهر من بعض المفسّرين دلالة الآية على الشمولية المقيّدة بالأمور الدينية: أي القرآن قد ذكر كلّ ما يحتاج الناس إليه من أمور دينهم و شريعتهم من الحرام والحلال والثواب والعقاب [الطبري، جامع البيان، ج 14، ص 108]، أو أنّ القرآن الكريم ذكر الأمور الدينية الكلّيّة والأساسية وما يحتاج إليه الناس على سبيل الإجمال، في حياتهم العامّة المتعلّقة بالنظام العقدي والشرعي والأخلاقي وترك التفاصيل إلى السنّة والعقل [الرازي، تفسير الكبير، ج 20، ص 258]، وذهب بعضهم إلى أنّ الآية مقيّدة بأمور الهداية، بمعنى ذكر القرآن الكريم لكلّ أمر يهدي الناس إلى السعادة والتكامل. [الطباطبائي، الميزان، ج 12، ص 324]

آية التفصيل

﴿**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [سورة يوسف: 111]، الشاهد هو جملة "تفصيل كلّ شيءٍ"، وهي عند أكثر المفسّرين صفة للقرآن وإن اختلف في المراد منها، فبعضهم قيّدوها بالأمور الدينية؛ أي تفصيل كلّ شيءٍ يُحتاج إليه في الدين [الطبرسي، مجمع البيان، ج 5، ص 416]، وبعضهم قيدوها بكلّ ما يحتاجه الإنسان في الهداية إلى سعادته وتكامله؛ وبما يحتاجه الناس من أمور معاشهم ومعادهم. [الطباطبائي، الميزان، ج 11، ص 280]

فالآيتان المذكورتان تدلّان على الشمولية عند أكثر المفسرين، وإن اختلف في دلالتهما على الشمولية إطلاقًا وتقييدًا، وإذا دقّقنا في سياق الآيتين والآيات التي قبلها وبعدها، نجد أنّ الرأي الصحيح هو أنّهما تدلّان على أنّ القرآن ذكر كلّ ما له دخلٌ في هداية الإنسان وإيصاله إلى السعادة والكمال، سواءٌ كان أمرًا اقتصاديًّا أو سياسيًّا أو اجتماعيًّا أو غير ذلك؛ لأنّ لفظة "كلّ شيءٍ" قبل كلمة "الهدى" وردت في كلتا الآيتين، وهذا معناه أن تفصيل القرآن الكريم وشموله مرتبط بأمور الهداية، وورد في كلا الآيتين ذكر السعادة والشقاء؛ فالآية 89 من سورة النحل وقبلها تحدّثت عن شقاء المشركين الذين لم يتّبعوا نبيّ الإسلام، فبعد أن يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ**﴾ يقول مباشرةً: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾، فكأنّ الله سبحانه وتعالى يقول: إنّنا نزلنا عليك الكتاب الذي بيّنّا فيه كلّ شيءٍ، فلماذا لم يهتدِ الناس إلى

طريـق الحـقّ ولـم يجتنبـوا الطاغـوت؟

وكذلـك الآيـة الأخـيرة مـن سـورة يوسـف؛ فالآيـات السـابقة منهـا تحدّثـت عـن شـقاوة إخـوة يوسـف، وعـن سـعادة يوسـف عليه السلام الذي هـرب مـن الذنـوب وعفـا عـن إخوتـه، وفي النهايـة يقـول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾، فهـذا الحديـث (أي القـرآن) فصّـل كل شيءٍ يحتـاج النـاس إليـه في سـعادتهم.

القسم الثاني: الأدلّة غير المباشرة من الآيات

هي الآيـات الـتي تبـيّن بعـض خصائـص القـرآن، وهـذه الخصائـص تـدلّ على شـمولية القـرآن وهي:

1ـ **عالميـة القـرآن**: ومـن الموضـوعات الـتي لهـا علاقـة بشـمولية القـرآن هي العالميـة، وهنـاك آيـات مختلفـة تـدلّ على عالميـة القـرآن الكريـم، كقـوله تعـالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة ص: 87؛ سورة التكوير: 27؛ سورة الأنعام:90؛ سورة يوسف: 104]، فالقـرآن كتـاب العالَمِـين، يعـني هـو قانـون ودسـتور لـكلّ العالـم، فهـو ذكـر ورسـالة عامّـة لجميـع النـاس من مختلـف الشـعوب، ولا يختـصّ بقـوم دون قـوم، وهـذه العالميـة تـدلّ على الشـمولية؛ لأنّـه إذا كانـت دعـوة القـرآن لجميـع النـاس مـن بـدو نـزوله إلى نهايـة الدنيـا؛ فـلا بـدّ أن تكـون معارفـه بشـكلٍ ترفـع الاحتياجـات المختلفـة الـتي تؤثّـر في سـعادة النـاس على اختـلاف الطوائـف وفي كلّ زمـان ومـكان، وهـذا معـنى شـمولية القـرآن؛ ولذلـك فسّرهـا الـرازي: بكونـه ـ أي القـرآن ـ مشـتملًا على كلّ مـا يحتـاج النـاس إليـه في معاشـهم ومعادهـم. [الرازي، التفسير الكبير، ج 13، ص 58]

2ـ خلـود القـرآن: هنـاك آيـات مختلفـة تـدلّ على الخلـود، منهـا قـوله تعـالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [سورة الأنعام: 19]، فقـد ذهـب المفسّرون إلى أنّ قـوله تعـالى: ﴿لأنذركـم بـه ومـن بلـغ﴾ تـدلّ على كـون القـرآن الكريـم حجّـةً مـن الله وكتابًـا له ينطـق بالحـقّ على أهـل الدنيـا مـن لدن نـزوله إلى يـوم القيامـة [الطباطبائي، الميزان، ج 7، ص 39]، وخلـود القـرآن يـدلّ على الشـمولية؛ لأنّـه إذا كانـت دعـوة القـرآن مسـتمرّةً ومعارفـه خـالدةً، فـلا بـدّ مـن أن يسـتجيب لجميـع احتياجـات النـاس على مـرّ العصـور، خصوصًـا مـا يرتبـط منهـا بسـعادتهم الدنيويـة والأخرويـة [كريمي، جامعية القرآن الكريم، ص 122 و123]، فالعالميـة وخلـود القـرآن يـدلّان على الشـمولية بالملازمـة.

ويظهـر مـن الآيـات المذكـورة وكلمـات المفسّريـن حـول الشـمولية في ذيـل آيـة التبيـان وغيرهـا

من الآيات، أنّ القرآن لم ينف التجارب الإنسانية في كثير من الأمور الحياتية والدنيوية كإدارة مؤسّسات الدولة وغيرها، فقد شمل القرآن كلّ ما له دور في الهداية والسعادة وكمال الإنسان، سواءً كان اجتماعيًا أو سياسيًا أو علميًا؛ ولذلك أعطى خطوطًا عامّةً وقواعد كلّيّةً في تلك المجالات، ورغّب الإنسان بالسعي وبذل الجهد في جميع الشؤون الدنيوية والأخروية بقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [سورة النجم: 39]؛ «فهذه الآية تدلّ على أنّ الإسلام دين الحياة؛ لأنّها تنصّ بصراحة على أنّ الله ينظر إلى عباده من خلال أعمالهم في الحياة الدنيا، فكلّما تهرّب من الحياة وابتعد عن همومها ومشاكلها مكتفيًا بالتكبير والتهليل والصوم والصلاة فقد ابتعد عن الله ودينه ورحمته» [مغنية، تفسير الكاشف، ج 7، ص 183]، وكذلك الإشارات العلمية للقرآن الكريم هي خير دليلٍ للتناغم بين القرآن والعلم، ومن بينها يمكن أن نشير إلى قضيّة علم الأجنّة، وبعض قضايا علم الفلك وخلق العالم، وما إلى ذلك.

نعم، لم يصادر القرآن كلّ الأمور العلمية والإنسانية، ولم يغفل التجارب البشرية، فرغم دعوته إلى التفكّر والتعقّل في خلق الكون والفلك وترغيبه فيها، لكنه لم يتعرّض إلى الجزئيات، ولم يبيّن المسائل التجريبية التفصيلية في الكيمياء والفيزياء والطبّ [رضايى اصفهانى، مجموعه مقالات قرآن و علوم انسانى، ج 1، ص 52]، وما إشارته إلى بعض المعطيات العلمية (كالنجوم والطبّ وغيرها)، إلّا من باب توجيه الإنسان والقدح في ذهنه مقدّمات الهداية، ودعوته للتفكير والتعقّل في خلقه والكون، حتّى يدرك عظمة الخالق والخلق والوصول إلى الكمال والسعادة، ويهتدي إلى الله بالتعقّل والتدبّر والعلم لا بالجمود والتلقين والتقليد والجهل.

الفرع الثاني: الدليل العقلي

من الأدلّة المهمّة غير النصّيّة الدليل العقلي الذي يتألّف من مقدّمات ونتيجة، وهو أنّ الهدف من خلقة الإنسان وصوله إلى الكمال اللائق به، وكماله الحقيقي مرهون بسلوكه وأعماله الاختيارية، واختيار طريق الكمال مشروط بالعلم والمعرفة الكافية، وقد عجزت بعض وسائل الإنسان المعرفية كالمعرفة الحسّيّة عن إدراك طريق الوصول إلى الكمال. نعم، العقل - مع كونه الكاشف والحاكم ومن خلاله يتمّ معرفة الحقائق الكلّيّة وإليه نرجع عند اختلاف المصادر المعرفيّة - غير قادر على كشف الأمور الجزئية، ومنها الرابطة بين الفعل الاختياري للإنسان في الدنيا ونتائجه الأخرويّة، فتكون النتيجة: اقتضاء الحكمة الإلهية وجود

طريق معرفي آخر للإنسان غير العقل والحسّ؛ يوصله إلى الكمال المطلوب، وهذا الطريق هو الوحي؛ فبناءً على ذلك تعاليم القرآن وإرشاداته تكمن في تحصيل الهدف من خلقة الإنسان، أي التمهيد لوصوله إلى الكمال والسعادة المطلوبة؛ إذن يجب أن يكون للقرآن تعاليم وقوانين لازمة من أجل وصول الإنسان إلى الكمال. [كريمي، جامعية القرآن الكريم، ص 101 - 104]

المطلب الرابع:

أدلّة شمولية القرآن للحياة الاجتماعية والسياسية ونقد آراء العلمانية

وصف القرآن الكريم الدنيا بأوصافٍ مختلفة، وقد مدحها من جهة أنّها مخلوقة لله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [سورة السجدة: 7]، وذمّها حينما تصبح محطّةً لميول الإنسان ورغباته: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنعام: 32]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة الحديد: 20]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [سورة فاطر: 5]، وقد امتدحها كونها مزرعةً للآخرة وآيةً ودليلًا إلى الله؛ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص: 77]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: 164]، فالقرآن الكريم، كتاب جامع و شامل لكلّ جوانب وجود الإنسان من الجسم والروح. فالأديان والكتب السماوية ـ ومنها القرآن المبين ـ نزلت لأجل إيصال الإنسان إلى كماله؛ لأنّ خلق الإنسان ما كان بلا هدفٍ وغايةٍ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 115].

ومن جانب آخر فإنّ الغاية من خلقة الموجودات، بلوغها الكمال المرسوم لها: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: 50]، وأعطى الله ﷻ للإنسان الاختيار في طريق كماله النهائي. ولأنّ العقل محدود ويخطئ، والإنسان في معرض التلوّث بالذنوب والمعاصي، أنزل الله ﷻ الرسل والكتب السماوية لأجل الهداية إلى الكمال النهائي

والسعادة المطلوبة، والكمال النهائي والسعادة المطلوبة في منظومة القرآن هو التقرّب إلى الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [سورة الانشقاق: 6]. وهذه هي المرتبة الأعلى من السعادة، وأمّا المرتبة الأدنى منها فهي الوصول إلى الجنّة، والشروط اللازمة للسعادة الحقيقية هي الدوام على الاستقامة، وعدم التعرّض للشقاء والألم، وملازمة الشعور بالطمأنينة والسلام. [الحيدري، أخلاقنا، ص 122 و123]

فالقرآن الكريم ذكر الأهداف المقدّمية لأجل الوصول إلى هذه الغاية السامية، وهي الأصول الكلّيّة لمختلف الشؤون الدنيوية (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها) والأهداف الوسطية كالمعرفة والتزكية والتعليم، فالدنيا في ضوء الرؤية القرآنية مزرعة الآخرة: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: 197]، [محمدى رى شهرى، دنيا و آخرت از نگاه قرآن و حديث، ج 1، ص 106؛ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 1، ص 197؛ فضل الله، من وحي القرآن، ج 4، ص 105]، وجسرٌ إلى الكمال المطلوب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة المائدة: 35]، [مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج 3، ص 687]، كما نهى عن الترهّب وتحريم ما أحلّ الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [سورة المائدة: 87]. [محمدى رى شهرى، دنيا و آخرت از نگاه قرآن و حديث، ج 1، ص 126 و164] فالدنيا في منظار القرآن محلّ التكامل وتطوّر الإنسان معنويًّا وعلميًّا، فالقرآن تحدّث بشكلٍ عامٍّ وكلّيٍّ عن الدنيا لما لها من دور محوري في الهداية والضلالة.

أولاً: أدلّة شمولية القرآن للحياة الاجتماعية والسياسية

شمولية القرآن بالنسبة إلى شؤون الدنيا تعني أنّ الله أنزل القرآن الكريم بالتعاليم التي تنظم الحياة الدنيا؛ لأنّه كتاب هداية وتربية؛ فهو يشمل كلّ ما له علاقة بهداية الإنسان وتربيته من أمور الاجتماع والسياسة والحكومة والاقتصاد والعلم والأخلاق والثقافة، ولمّا كانت شبهات العلمانيين تدور حول نفي تدخّل القرآن في مسائل الدنيا وتنظيم أمور المجتمع السياسية وغيرها؛ لذا يجب أن نشرح شمولية القرآن لتلك الجوانب وننقد آراء العلمانيين بخصوصها. أمّا الجوانب الأخرى من الحياة الدنيا كالاقتصاد والعلم التجريبي والثقافة، فقد تطرق إليها العلمانيون على نحو ضيق، ونحن إذ نمارس نقدًا لآرائهم حول الأمور الدنيوية في الجانب الاجتماعي والسياسي؛ فإنّنا في الواقع نمارس نقدًا لآرائهم في الأمور الأخرى أيضًا.

الفرع الأوّل: شمولية القرآن للحياة الاجتماعية

ولمّا كان الإنسان موجودًا اجتماعيًّا ومدنيًّا بالطبع، فقد ذُكر في القرآن الكريم كثيرٌ من المعارف والمسائل التي تتعلّق بالحياة الاجتماعية، وأشير إلى المباني والأصول الأساسية المهمّة والقيّمة؛ لأجل بناء المجتمع الإنساني الإلهي، فتحدّث القرآن الكريم عن الجماعة والمجتمع باصطلاحات مختلفة، فمن مترادفاتها (الأمّة) التي هي مشتقّة من الأمّ، وهذه الكلمة جاءت في القرآن الكريم 65 مرّةً، 52 منها بصورة مفردة، و13 منها بصورة الجمع، ومنها كلمة القرية جاءت في القرآن بمعنى الأمّة أو المجتمع [فخر زارع، جامعه از منظر قرآن، ص97 و98]، وقد تحدّث القرآن الكريم عن البُعد الاجتماعي للإنسان في آيات كثيرة منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [سورة الحجرات: 13]، ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾ [سورة الفرقان: 54]، ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [سورة الزخرف: 32]، ففي الآية الأولى أشار في إطار نظام أخلاقي إلى فلسفة خلق الإنسان الخاصّة، وأنّ تلك الفلسفة قائمة على خلق الإنسان في صورة اجتماعية من قبائل وشعوب؛ ليكون التعارف عبر الانتساب إلى تلك الشعوب والقبائل الشرط اللازم للحياة الاجتماعية. [مطهري، مجموعة الآثار، ج 2، ص 333 - 335].
وقد ذكر القرآن الكريم بعض الأصول والأسس والأحكام الاجتماعية، وكما هو آتٍ:

مقوّمات الحياة الاجتماعية في القرآن

تكفّل القرآن الكريم بإعداد المباني والمقوّمات للحياة الاجتماعية، وأهمّها التالي:

تكريم الإنسان: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ [سورة الإسراء: 70]، إنّ شخصية الإنسان محترمة في المجتمع الإسلامي، وكرامته مصونة، وعلى هذا الأساس تُبنى العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي، وطبقًا لهذا الأساس يتعامل القانون والسلطة والمجتمع مع الإنسان. [الموسوي، النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 39]

الوحدة وعدم التفرّق: اهتمّ الإسلام والقرآن الكريم والأديان السماوية بالوحدة كثيرًا، ونهوا عن التفرّق والاختلاف، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ**

مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: 105]، والوحدة من أهداف رسالة الأنبياء وبعثتهم: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ [سورة البقرة: 213]، [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 4، ص 93]، وإنّ الله ﷻ حدّد المدار ومحور الاتّحاد في المجتمع الإنساني الإلهي، وهو الاعتصام بحبل الله: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا**﴾ [سورة آل عمران: 103].

العدالة والمساواة: العدالة من متطلّبات المجتمع الإنساني برمّته؛ إذ ينشدها العقلاء ويأمرون بها، ولم يغفل القرآن أيضًا هذا المقوّم الاجتماعي المهمّ، إذ أمر بالعدالة في جميع مجالات الحياة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾ [سورة النساء: 135]، ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾ [سورة النحل: 90]، وقال المحسني: «الظاهر أنّ المراد من العدالة في أكثر الآيات القرآنية، هي العدالة الاجتماعية» [المحسنى، فوائد دين در زندگانى، ص 56].

إذن، فذكر هذه المقوّمات (تكريم الإنسان، الدعوة إلى الوحدة، الأمر بالعدالة الاجتماعية) في القرآن يدلّ على أنّ هذا الكتاب المقدّس قد التفت إلى هذا البعد التفاتًا خاصًّا، فذِكرُ تلك المقوّمات الاجتماعية المهمّة التي يأمر بها كلّ العقلاء في حياتهم الاجتماعية هو خير دليل على شمولية القرآن للجانب الاجتماعي.

بيان أصول العلاقات الاجتماعية

من أهمّ البحوث في العلوم الاجتماعية هي العلاقات الاجتماعية، أصولها وأسلوبها وآدابها، فالقرآن الكريم لأجل اهتمامه بالحياة الاجتماعية، ذكر أصولًا وقوانين للعلاقات في الحياة الاجتماعية، ونذكر أهمّها فيما يلي:

الأصول العامّة للعلاقات الداخلية في الحياة الاجتماعية: أمر القرآن الكريم المجتمع الإسلامي بأساليب وأصول خاصّة في علاقاتهم الاجتماعية، ففي علاقاتهم الكلامية أمرهم بالتحيّة، وبالاستئناس والاستئذان عند الدخول في بيتٍ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [سورة النور: 27]، ﴿**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [سورة النور: 28]، وأمر بردّ التحيّة بما يزيد عليها أو يماثلها: ﴿**وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا**﴾ [سورة النساء: 86] [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 5، ص 29 و30]، وأمر بالقول الطيّب والأحسن في المحاورة: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [سورة البقرة: 83]، ونهى عن

ممارسات سيّئة كثيرة تؤدّي إلى خرق العلاقات الاجتماعية كالسخرية والتنابز بالألقاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الحجرات: 11]، ونهى عن الغيبة والتجسّس وسوء الظنّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحجرات: 12].

الأصول العامّة للعلاقات الخارجية في الحياة الاجتماعية: ومنها: الوفاء بالعهد ما دام الآخر باقيًا على عهده: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة: 1]، ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [سورة التوبة: 12]، والتعايش السلمي مع أهل الكتاب: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: 64].

ممّا ذكرنا يظهر أنّ القرآن الكريم قد ذكر كثيرًا من الأسس والأحكام وأصول العلاقات الاجتماعية، ونهى عن الأعمال التي تجرّ إلى هدم العلاقات، فلو لم يشتمل القرآن الكريم على الجانب الاجتماعي للحياة لما بيّن تلك الأمور، فالقرآن شامل وجامع للحياة الاجتماعية.

الفرع الثاني: شمولية القرآن للحياة السياسية

تشكّل الحياة السياسية جانبًا مهمًّا من جوانب حياة الإنسان، لما لها من أثر واضح على جوانب أخرى من حياته (كالاقتصاد والثقافة والعلم)، وبارتقاء الوضع السياسي يرتقي الإنسان ويبلغ الذروة في الحياة المدنية، ويرتقي مع ذلك المجتمع البشري. والسياسة في اللغة هي: «القيام على الشيء بما يصلحه» [الطريحي، مجمع البحرين، ج 4، ص 78]، وفي اصطلاح علماء الإسلام: «عبارة عن تبرير ـ أو توجيه ـ وإدارة البشر إلى حياة المعقول لأجل الوصول إلى أفضل أهدافها» [جعفرى، حكمت اصول سياسى اسلام، ص 93]. كما أنّ الحكومة في اللغة هي: «القضاء بالعدل» [الأزهري، تهذيب اللغة، ج 4، ص 69]، وفي الاصطلاح: مؤسّسة مؤلّفة من تنظيمات إدارية ـ اجتماعية خاصّة تحكمها أيديولوجيا سياسية معيّنة؛ لأجل تطبيق وحفظ أهداف تلك الأيديولوجيا في المجتمع [فرهيخته، فرهنگ فرهيخته، ص 365]، فالعلاقة بين الحكومة والسياسة علاقة اللازم والملزوم، وفي الحقيقة الحكومة هي النظام السياسي الذي يدير شؤون المجتمع.

1- ضرورة وجود الحكومة الإلهية من منظور القرآن الكريم

من الأمور البدهية التي يدركها كلّ إنسان عاقل هو التنظيم وإدارة المجتمع الإنساني؛ لكي يحيا حياةً دنيويةً هانئةً وسليمةً، فإنّ تطوّر المجتمع على جميع الأصعدة لا يمكن إلّا من خلال حكومة ناجحة وإدارة سليمة. فالقرآن الكريم لم يغفل هذا الأمر المهمّ الخطير؛ لأنّ الغفلة عنه وعدم بيان تنظيم المجتمع وبلورة مجتمع إلهي، يتنافى مع الحكمة الإلهية، وقد بيّن القرآن الأمور التي توجب تأسيس الحكومة.

لزوم تأسيس الحكومة: بيّن القرآن الكريم أهدافًا متعدّدةً للأنبياء: كإقامة القسط في المجتمع البشري: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد: 25]، وإيجاد مجتمع إلهي توحيدي يكفر الطاغوت: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل: 36]، وتخليص البشر من الأسر ومن الحكومة الطاغوتية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص: 4 و5]، والأمر بالجهاد الدفاعي: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: 190]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [سورة الحجّ: 39]، والأمر بالدفاع عن الإسلام والأرض والعرض: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: 190]، والوصول إلى هذه الأهداف وتطبيق هذه الأحكام في المجتمع البشري يستلزم عقلًا تأسيس حكومة دينية إلهية. [قاسمى، ادله قرآنى ضرورت حكومت، ص 3]

2- الأحكام العامّة التي يحتاجها البشر في تأسيس النظام السياسي

بما أنّ القرآن الكريم بيّن الأوامر والقوانين التي تستلزم وجوب تأسيس الحكومة الإلهية العادلة، فإنّه قد ذكر الأسس والمباني العامّة للحكومة والنظام السياسي الإلهي التي يحتاجها البشر في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وأهمّها:

التشريع والدستور على أساس الأوامر الإلهية: جميع النُّظم السياسية تحتاج إلى كتابة مقرّرات ودستور، والدستور والمقرّرات الأساسية في النظام السياسي في ضوء القرآن، هي التي أمر بها الله تعالى، فإنّ الله ﷻ بيّن أصول النظام السياسي وأساسياته، فالقرآن الكريم يذكّر في آيات متعدّدة بأنّ الحاكمية منحصرة بالله تعالى؛ لأنّه خالق الكون:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة الأنعام: 57] ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [سورة غافر: 62] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: 189]، فالحاكمية الواقعية لله تعالى؛ لأنّه أعلم بمخلوقاته وأعلم بأحكامهم وشرائعهم، فتلك الآيات تبيّن أنّ الحكم والقانون بيد المشرّع الحقيقي وهو الله [البخاتي، السياسة في القرآن الكريم، ص 42]، من جانب آخر الإنسان خليفة الله في الأرض في ضوء رؤية القرآن: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: 30]، وهو المتكفّل بإقامة حكم الله ووارث الأرض والحكم فيها [عميد زنجاني، مدخل إلى الفكر السياسي في الإسلام، ص 101]، فالحكم والقانون والتشريع مختصٌّ بالله تعالى، والسيادة والأولوية للتشريعات الإلهية؛ فلذلك يعدّ أنّ من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر وظالم وفاسق: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ﴾ [سورة المائدة: 44]، ﴿وَهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة المائدة: 45]، ﴿وَهُمُ الْفاسِقُونَ﴾ [سورة المائدة: 47]. [المودودي، الخلافة والملك، ص37]

الحرّية: خُلق الإنسان حرًّا بالفطرة، وله الاختيار في مسيرة كماله [زارع قراملكى، اصول تفكر سياسى در قرآن، ص 142]؛ ولذلك جميع الملل والنحل تدعم الحكومة التي تحترم الحرّية (أو الديمقراطية)، ومن هذا المنطلق منح الله تعالى الإنسان الحرّية في مقابل ما أعطاه من هداية تشريعية تجسّدت في بعثته للأنبياء، أي أنّه ترك له حرّية الاختيار في ذات الوقت الذي جعله مكلّفًا ومسؤولًا عن مستقبله؛ وذلك لأنّ الإنسان لديه القدرة على التمييز والإدراك [عميد زنجاني، مدخل إلى الفكر السياسي في الإسلام، ص 102]، فأعطى له حرّية الاعتقاد: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [سورة البقرة: 256]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: 99]، ووهبه الحرّية الفكرية: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: 3]، وهذه الحرّية مقيّدة بقوانين تسنّها الحكومات لضبط إيقاع الأهواء والأمزجة؛ فالقوانين وجدت لكي ترقى بالمجتمعات إلى مدارج الرفعة، وما اقترح القرآن الكريم حدودًا لحرّية الإنسان، لخلق المانع، بل هو من جهة الفطرة وحركة الإنسان إلى الكمال المطلوب. والقرآن الكريم على خلاف المدارس الأخرى لم يعدّ الحرّية هدفًا نهائيًّا للإنسان، بل اتّخذ من الحرّية طريقًا للتكامل والسموّ.

الشورى: في كلّ حكومة (جمهورية أو ملكية) يوجد غالبًا مجلس للشورى يشرّع القوانين بما يتماشى مع مصالح الأمّة؛ ولذلك ذكر القرآن الكريم إحدى صفات المجتمع المؤمن من الحركة والعمل على أساس المشورة وتبادل الآراء واتّخاذ القرار المشترك، ويدعو حتّى الرسول إلى

اتّباع هذه الطريقة في أعماله الاجتماعية والسياسية؛ لكي يحترم بذلك آراء الجميع ويشاركهم في القرارات الحكومية والسياسية، فقد أكّدت آيتان كريمتان من القرآن على قضيّة الشورى والتشاور، إحداهما: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ [سورة آل عمران: 159]، والأخرى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ [سورة الشورى: 38]. [مصباح يزدي، الحكومة الإسلامية، ص 79]

رفض الاستكبار: من الأصول والأسس الهامّة والممتازة والقيّمة التي ذكرها القرآن الكريم للسياسة والحكومة، هو رفض الاستكبار، والقرآن الكريم ذمّ التكبر والاستكبار في موارد مختلفة، يمكن أن نعتبر قاعدة نفي السبيل المستدلّ عليها من قوله تعالى: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**﴾ [سورة النساء: 141] وقوله عزّ من قائل: ﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا ... وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ**﴾ [سورة آل عمران: 28]، من أصول السياسات الخارجية، [زارع قراملكي، المصدر السابق، ص 181] ومن مصاديق قاعدة رفض الاستكبار؛ لأنّ نفي السبيل في الحقيقة هو رفض سلطة الأجانب والكفّار على المسلمين وقاعدة العزّة أيضًا تنتهي إليها.

إقامة نظام عسكري مقتدر: إنّ أحد شؤون الحكومة المقتدرة والمستقلّة، وجود قوة عسكرية متطوّرة، لتوفّر للناس حياةً آمنةً من ناحية، ولتدافع عن الحدود الجغرافية للبلد ضدّ المعتدين من جهة أخرى؛ ولذلك أكّد القرآن الكريم على هذا البعد، فقال عزّ من قائل: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾ [سورة الأنفال: 60]، فهذه الآية تخاطب المسلمين وتحثّهم على عدم الانتظار في إعداد العدّة والتهيّؤ لمواجهة العدوّ عسكريًّا، وأن لا ينتظروا هجومه، بل يجب أن تكون لديكم القدرة والاستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة. [مكارم شيرازي، تفسير الأمثل، ج 5، ص 471]

ويظهر ممّا تقدّم احتياج كلّ بلدٍ وشعب إلى تأسيس نظام سياسي مستقلّ ومقتدر بالإضافة إلى وجود قوانين ودستور، ووجود حرّية سياسية، تسمّيها العديد من الحكومات "ديمقراطية". وبحاجة إلى قوّة عسكرية لأجل الدفاع عن كيانهم مقابل الأعداء، فهذه الأمور ـ أي: الدستور والحرّية والشورى والقوّة العسكرية ـ تحتاجها جميع الأنظمة السياسية، وفي كلّ زمان ومكان، والقرآن الكريم أكّد تلك الأمور أيضًا، فهو شامل للجانب السياسي من الحياة.

المطلب الخامس: آراء العلمانيين حول شمولية القرآن للحياة الاجتماعية والسياسية ونقدها

الأصالة للدنيا في منظومة الفكر العلماني، ولا يرى هذا الفكر شيئًا وراء الدنيا، لكي يكون هناك حساب أو عقاب، وهذا ينشأ من اعتقاد العلمانيين بالحيثية الواحدة في وجود الإنسان [جعفرى نسب، تبيين نقش مبانى انسان شناختى سياست سكولار در تحقق حقوق شهروندى و مقايسه آن با مبانى اسلام، ص 77]، كما أنّهم يرون أنّ كلّ أمور الإنسان وأفعاله تدور مدار اللذّة، فالهدف من جميع الأفعال هو تحصيل اللذّة [المصدر السابق، ص 86]، فعلى هذه الرؤية تتعارض الأمور الدنيوية مع شؤون الآخرة؛ لأنّ تلك الأمور تُعمل من دون الالتفات إلى الآخرة. ومن المسلمين من تأثّر بالفكر العلماني ودافع عنه واستدلّ على إثباته بآيات القرآن الكريم والأدلّة العقلية، وتبنّوا آراء في تصحيح الرؤية العلمانية، ونذكر أهمّها فيما يلي:

الفرع الأوّل: آراء العلمانيّين في ردّ شمولية القرآن للدنيا ونقدها

تعاليم القرآن تنحصر في العبودية والحياة الأخروية

يقول مهدي بازرگان: «إنّ مهمّة القرآن هو الإنذار من الآخرة والتبشير بالجنّة والطريق إلى الخالق الواحد. فهناك آيات عديدة تكرّس ذلك على حدّ زعمه، مستشهدًا ببعض الآيات في إثبات دعواه منها: قوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [سورة الفرقان: 1]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**﴾ [سورة الدخان: 3] وأوّل غايات القرآن من ذكر المسائل الدنيوية من الحدود والإنفاق والنهي عن الخمر والفحشاء، إنّما هو الوصول إلى الله، لا إصلاح الشؤون الدنيوية مثل العدالة وغيرها. وأيضًا استدلّ على ذلك بهذه الفكرة: إنّ انشغال الدين بحياة الفرد والمجتمع والسعي إلى النهوض بهما، سيحوّل الآخرة إلى هدف ثانوي عرضي، وحينها سيضعف الإخلاص الديني وعبادة الله، وسيفقد الدين أصالته ورونقه» [بازرگان، آخرت و خدا هدف بعثت انبياء، ص 60].

تحليل ونقد

يمكن القول إنّ صاحب هذا الرأي لم يلتفت إلى أهداف القرآن ورسالات الأنبياء، فنحن قد ذكرنا بأنّ الهدف النهائي من نزول القرآن ليس إصلاح الأمور الدنيوية وحسب، بل الهدف النهائي هو وصول الإنسان إلى أعلى درجة الكمال والسعادة؛ ولذلك لم

يُنزل القرآن لأجل وضع نظام تفصيلي وبرنامج لكيفية إدارة الدولة وسائر الشؤون الدنيوية للمجتمع، ولكنّه نزل للوصول إلى ذلك الهدف النهائي، وهو ضرورة تنظيم شؤون المجتمع الإنساني في الأمور الدنيوية، فمن خلال تبيين القوانين الكلّيّة لجميع الجوانب الدنيوية يتمّ تنظيم سير الأمور الاجتماعية وفقًا لمقتضيات الزمان والمكان؛ فإصلاح الشؤون الدنيوية ليس هدفًا في مقابل الأهداف الأخروية النهائية، وحصر أهداف نزول القرآن بالإنذار والتبشير الأخروي وتأويل مقاصده في ذكره للمسائل الدنيوية، تأويلات بلا دليل، وهي تفسير بالرأي، ومتعارضة مع الآيات التي تبيّن بعضًا من الأهداف المذكورة آنفًا، كقوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [سورة البقرة: 179]، فالقصاص وتنفيذ الحدود الإلهية التي ذكرت في كثير من الآيات يتطلب وجود حكومة إلهية.

شمولية الدين للدنيا تؤدّي إلى أدلجة الدين

يعتقد الدكتور سروش بأنّ الدين يتعارض مع الأيديولوجيا، واستدلّ على عدم أدلجة الدين بأنّ الأيديولوجيا عبارة نظام ونسق دنيوي، وحينما يرد فيها كلام عن الآخرة فهو بالتبع؛ ولكنّ الدين عبارة عن نظام أخروي، وما جاء فيه من كلام وإشارات على الدنيا، فهو بالتبع، وإنّ أساس رسالة الدين هو رسم برامج أخروية، وأنّ ما جاء فيه من أمور تخصّ الدنيا، لا يغطي شؤونها ولا يكفي في تطوّرها، أو لا يعني التخطيط ووضع البرامج [سروش، أرحب من الأيديولوجيا، ص 5]؛ فالدين في تصوّر سروش لم يشمل الدنيا ولم يتدخّل لوضع الخطط والبرامج الدنيوية؛ وهذا يستلزم أنّ القرآن الذي هو المصدر الأوّل للدين الإسلامي لم يشتمل على برامج للحياة الدنيوية.

نقد فكرة أدلجة الدين لدى سروش

إنّ دليل سروش على بطلان (شمولية الدين للدنيا والآخرة) مخدوش؛ لأنّ الدين في الحقيقة والواقع جاء لأجل تكامل الإنسان وهدفه الأساسي تقرّبه إلى الله تعالى، فغايته الأساسية ليست إثراء الدنيا [نصيرى، تكامل انسان هدف بعثت انبياء، ص 3]، ولكن في الوقت نفسه، اقتصار رسالة الدين على الآخرة وتوقّع تقديم الدين برنامجًا متكاملًا للدنيا لا ينسجم مع هدفه الأساسي، والقرآن وضع برامج عامّة حول الدنيا. وهل يمكن أن يقبل أيّ إنسان عاقل أنّ الدين حرّم أكل لحم الخنزير، وأنّ ذلك يؤثّر في سعادته وشقائه، ولكنّه لم يتعرّض لنوع الحكومة في إدارة المجتمع من الناحية السياسية، والإسلام ساكت عن هذا الجانب سلبًا وإيجابًا؟ [مصباح يزدى، نگاهى گذرا به نظريه ولايت فقيه، ص 49]

وأمّا تعريفه للأيديولوجيا والدين وجعل أحدهما مقابلًا للآخر، فهو خطأ آخر ومنتزع من الرؤية الكونية العلمانية؛ لأنّ الدين كما أثبتنا جاء للدنيا والآخرة وأعطى للإنسان أيديولوجيا خاصّة به، والأيديولوجيا الإسلامية أُسّست على الرؤية الكونية الصحيحة، وهي غير قابلة للتجزئة. وهذه الأيديولوجيا تعتمد على أصول خاصّة كالمساواة في المجتمع الإنساني، والتموضع والاقتدار والاستقلال في السلطة الإسلامية الحاكمة، والمسؤولية الجماعية لكلّ الأفراد وغيرها. [سيد قطب، ويژگی های جهان بينى اسلامى، ص 24]

تعرض الدين للحدّ الأدنى من الأمور الدنيوية

يقول الدكتور سروش إنّ الدين والفقه تعرّض إلى الأمور الدنيوية من العلوم التجربية والإنسانية بالحدّ الأدنى من البيان [انظر: سروش، دين اقلى و اكثرى، ص 4]، ولم يأت إلى الآن فقيه ومتديّن رسم لنا خطّةً في التكنولوجيا وحياةً تتناسب ومقتضيات العصر. هذا وإنّ الاعتراف بالتحريف في الأحاديث الإسلامية بحسب عقيدة المجتمع المسلم وفي القرآن بحسب عقيدة الشيعة ـ لا سيّما الأخباريين منهم ـ ومقارنة فتوى الفقهاء مع الاحتياط، يدلّ على الاقتصار على الهداية. [انظر: سروش، بسط تجربه نبوى، ص 98] وآية الإكمال لا تدلّ على الشمولية للفرق بين الكمال (بأن يكون الدين كاملًا وناجحًا في هدفه) وبين الشمول (بمعنى أن يحتوي كلّ شيءٍ) [انظر: سروش، دين اقلى و اكثرى، ص 6]، فالدين ومصدره الأوّلي (القرآن) تعرّض إلى المسائل الدنيوية بالحدّ الأدنى من البيان حسب قناعة سروش، وهذا لا يكفي في وضع برنامج للحياة الدنيوية، فالدين والقرآن ليسا شاملين وجامعين للحياة الدنيوية.

تحليل ونقد

من المغالطات الواردة في استدلال سروش على إثبات هذا الرأي أنّ المستدلّ قسّم حدود البيان الديني بحدّين: الحدّ الأدنى والحدّ الأعلى، ولمّا أبطل البيان الديني بالحدّ الأعلى في ظواهر النصّ، فأنتج من بطلان نظرية الحدّ الأعلى إثبات نظرية الحدّ الأدنى، ولكنّ هذا الاستدلال مخدوش؛ لأنّ بيان الدين ليس منحصرًا في طريقين (الحدّ الأعلى والحدّ الأدنى)؛ فيمكن أن نقترح طريقًا آخر (وهو البيان بالحد المعتدل) يعني الإسلام والقرآن لم يتدخّل في جميع جزئيات الأمور الدنيوية، والحقّ أنّ الدين لاحظ أثر الأمور على الكمال النهائي للإنسان، ومدى كونها تقرب من الله أو تبعد منه تعالى، وعلى طبق ذلك حكم وشرّع ووضع القوانين، ولكنّه لا يتدخّل في نوعيتها وجودتها، بل فوّض جزئيات الأمور إلى العقل (الذي هو مصدر من مصادر الدين)، وأمّا في أكثر الموارد لم يستطع العقل إدراك المسائل

وتأثيرها في السعادة والشقاء حتّى يفهم الحكم، فهنا يأتي الدين (والقرآن) ويتدخّل ويحكم. [مصباح يزدى، نگاهى گذرا به نظريه ولايت فقيه، ص 45 - 47]

وأمّا استدلاله على الجعل والدسّ في الروايات الإسلامية فقابل للنقد؛ لأنّ الإسلام ليس كسائر الأديان الأخرى المحرّفة؛ والقرآن لن تصل إليه أبدًا يد الدسّ والتحريف وهو الذي ضمن الله تعالى حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: 9]. وأيضًا هناك قواعد وأصول يمكن أن نميّز من خلالها الروايات الصحيحة من السقيمة والمحرّفة. وأمّا تفريقه بين الكمال والشمولية فمردود؛ لأنّ الإكمال والإتمام (في الآية) متقاربا المعنى، قال الراغب: «كمال الشيء حصول ما فيه الغرض منه»، وقال: «تمام الشيء انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيءٍ خارجٍ عنه» [انظر: الراغب، المفردات، ص 76 و248].

فمعنى الآية إذن: أكملت لكم مجموع المعارف الدينية التي أنزلتها إليكم بفرض الولاية، وأتممت عليكم نعمتي وهي الولاية التي هي إدارة أمور الدين وتدبيرها تدبيرًا إلهيًّا. [انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 5، ص 179]

ويقول بعض الباحثين في علاقة الكمال والشمولية: إنّ الدين قد تعرّض لكلّ الأشياء التي لو لم يتعرّض لها، لحدث الاضطراب في حياة الإنسان [انظر: ايازى، جامعيت قرآن، ص 158]، وعدم التفاته أو عدم إيمائه إلى آية ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل: 89] يدلّ على ضعف كلامه من جهة أخرى.

الفرع الثاني: آراء العلمانيين في ردّ الشمولية للحياة الاجتماعية ونقدها

استدلّ كثير من المتأثّرين بالعلمانية على أنّ الإسلام والقرآن منفصل عن الحياة الاجتماعية، بالآراء التالية:

عدم إمكان انطباق أحكام القرآن على المجتمعات الحالية

تطبيق القواعد الشرعية في العصور الأولى للإسلام ليس دليلًا لتطبيقها على المجتمعات المعاصرة؛ لأنّ تطبيق تلك القواعد كان في ظروف معيّنة ـ ولذا تلك القواعد نسبية وليست مطلقةً وثابتةً ـ ولكن ظروف المجتمع المعاصر غير تلك الظروف، فلا يمكن انطباق القواعد القرآنية والشرعية عليه. إذن ينبغي أن نفترض أنّ الله وجّهها إلى العرب بالذات بسبب الظروف الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي وجدوا فيها. [انظر: عادل ضاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، ص 340]

إذن بحسب هذا الرأي لا يمكن أن نستنبط حكمًا وقانونًا من القرآن ونطبّقه في حياتنا اليوم؛ لأنّ الظروف التي نزل القرآن فيها غير الظروف المعاشة، فالقرآن ليس شاملًا لكلّ المجتمعات.

تحليل ونقد

أوّلًا: أنّ أساس استدلاله بُني على الاعتقاد بالنسبية التي انتزعها من الغربيين، وهي بنفسها موضع للنقاش ومورد للنظر. [مناقب، نسبيت فرهنگی و نقد آن با تأكيد بر آموزه هاى قرآنى، ص 100]

إضافة إلى هذا، فالاعتقاد بنسبية الحقائق لا ينسجم مع التعاليم القرآنية؛ لأنّ القرآن عدّ كلّ المبادئ والقيم التي تخالف التعاليم الإلهية الأصيلة قيمًا ومبادئ جاهليةً وقد شجبها بشدّة، فلم تؤسّس القيم والمعايير في الإسلام على أساس النزعة القومية؛ بل بُنيت على أساس المعايير التي أخذت من الوحي الذي هو مطلق ومنيع عن النوازع البشرية، وهو ثابت لا يطاله التغيير: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [سورة الأنعام: 34]. [انظر: المصدر السابق، ص 104]

ومن جانب آخر، القرآن ومعارفه خالدة وهو خاتم الكتب ونزل لجميع الأجيال كما تدلّ هذه الآية: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [سورة الأنعام: 19]، وهو حجّةً من الله وكتاب ينطق بالحقّ على أهل الدنيا من وقت نزوله إلى يوم القيامة. [انظر: الطباطبائي، الميزان، ج 7، ص 39] والخالدية تدلّ على الشمولية؛ لأنّه إذا كانت دعوة القرآن مستمرّةً ومعارفه خالدةً، فلا بدّ أن يستجيب لمتطلّبات الناس على مرّ العصور التي تؤثّر في سعادتهم الدنيوية والأخروية. [انظر: كريمي، جامعية القرآن الكريم، ص 122]

اختصاص آيات القرآن بأسباب نزولها

لو اختصّت الآيات بأسباب نزولها وعدم سريانها في الحوادث المشابهة في الأزمنة اللاحقة، فلا يمكن القول بوجود علاقة بين السياسة والحكومة والمجتمع من جهة والقرآن من جهة أخرى [انظر: اسدى نسب، سكولاريسم از منظر قرآن، ص 234]، فبعض العلمانيين وبعد الطعن على من فسّر الحكم في آيات ﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۞ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة المائدة: 44 و45]، ﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة المائدة: 47] بالحكم السياسي والقضائي، وفسّروها على أساس أهدافهم السياسية ونزعاتهم الحزبية البحتة، وذكروا سبب نزولها فقال أحدهم: إنّ تلك الآيات نزلت في أهل الكتاب وهم المقصودون وحدهم دون المسلمين [انظر: العشماوي، الإسلام السياسي، ص 85 و86]، وأكّد نزولها في أهل الكتاب برواية نقلها الطبري والزمخشري.

تحليل ونقد

إنّ القول باختصاص تلك الآيات بأهل الكتاب قابل للنقاش؛ لأنّه لو كان أهل الكتاب هم المقصودون وحدهم في تلك الآيات وأمثالها، فلا فائدة من تلك الآيات في يومنا هذا. ولو سلّمنا هذا الادّعاء فلا بدّ من اعتبار كثير من آيات القرآن من دون محتوًى وأثر؛ لأنّ الكثير من الآيات لها سبب نزول، وعدم قبولها يعني التغيير الشامل للشريعة الإسلامية، بما في ذلك المسائل الاعتقادية والعبادية، ومن جانب آخر، فإنّه على مبنى اختصاص الآيات بسبب النزول وعدم تعميمها يجب أن تكون فاعلية الآيات على الأقلّ إلى نهاية حياة النبيّ ﷺ، ولم يثبت تاريخيًّا العمل بالآية التي تشتمل على سبب نزول لمرّة واحدة وبعد ذلك ينتهي مفعولها؛ وكذلك فإنّه على هذا الفرض، فإنّك قد حططت القرآن إلى حدّ كتاب قصص ليس فيه حتّى فائدة عملية، يقرأه المسلمون لأجل الوصول إلى الثواب فقط، دون أيّ تأويل منطقي ومعقول. [انظر: اسدي نسب، سكولاريسم از منظر قرآن، ص 234]

وعلى صعيد آخر، العبرة والملاك بعموم اللفظ لا خصوص السبب، ولا شكّ في أنّ أسباب النزول طريق معبّد لفهم الكثير من الآيات الكريمة؛ لأنّ أوّل ما ينطبق عليه معنى الآية هو ما كان سببًا لنزولها، ثمّ يعمم الحكم بعموم اللفظ. [انظر: أبو زهرة، معجزة الكبرى القرآن، ص 400]

الفرع الثالث: آراء العلمانيين في ردّ الشمولية للحياة السياسية والحكومية ونقدها

ماهية الحكومة والدولة والسياسة في منظور العلمانية هي الدولة والحكومة المنفكّة والمنفصلة عن الدين والشريعة الإلهية تمامًا؛ ولذلك الحكومة من منظور العلمانيين هي ما كانت شرعية السلطة السياسية فيها مستمدّةً من الشعب، ومن هنا فإنّ هذه السلطة لا تستمدّ شرعيتها من الله، ويجب أن يكون تشريعها قائمًا على أسس غير دينية. [شمس الدين، العلمانية، ص 129 و130]

وتبعًا لذلك فإنّ الكثير من العلمانيين في المجتمع الإسلامي، قد انتقدوا شمولية الدين والقرآن للحياة السياسية وأثاروا الشبهات، وفيما يلي نذكر أهمّها مع الردّ:

القرآن ينفي حاكمية الأنبياء عليهم السلام

زعم بعض العلمانيين أنّ القرآن نفى سلطة الأنبياء، ونفى كذلك سلطة نبيّ الإسلام ﷺ وحاكميته على الناس. أمّا في نفي حاكمية الأنبياء فقد قالوا: «إنّ الرسالة غير المُلك، وإنّه ليس بينهما شيء من التلازم بوجه من الوجوه، وإنّ الرسالة مقام والملك مقام آخر» [انظر: عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، ص 70].

وحينما ننظر إلى القرآن نرى أنّ وصول خاتم الأنبياء وبعض أنبياء بني إسرائيل إلى الحكومة أو السلطة لم يحظ به جميع الأنبياء، بل النبوّة والحكومة كانا أمرين منفصلين ومختلفين، ذا منشأين أو أساسين مختلفين لا يمكن جمعهما في شيء واحد. [انظر: بازرگان، خدا و آخرت هدف بعثت انبياء، ص 56] واستدلّ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 246 و247]. وقال: «اتّضح من تعيين النبيّ ملكًا بطلب من الناس، وعدم اعتراضه عليهم بكونه موجودًا ولا حاجة لملك أنّ النبوّة والحكومة مسألتان منفصلتان، وأغلب الأنبياء بحسب ما نفهمه من القرآن لم يتدخّلوا وما كان لهم تدخّل في أمر الحكومة» [بازرگان، خدا و آخرت هدف بعثت انبياء، ص 28 و29].

وفي نفي حاكمية نبيّ الإسلام ﷺ توسّلوا بمجموعتين من الآيات: الأولى هي الآيات التي تدلّ على عدم الإكراه في الدين، والثانية هي الآيات التي تشعر بانحصار وظيفة النبيّ ﷺ في التبليغ والإنذار والتبشير، فاستنتجوا منها: أنّ القرآن ينفي حاكمية نبيّ الإسلام ﷺ؛ لأنّ الحكومة تستلزم القوّة والبطش، في حين أنّ القرآن ينفي إكراه الناس في الدين: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: 256] وخاطب القرآن النبيّ ﷺ بأنّك لست مسلّطًا على الناس: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية: 22]. ومن جانب آخر تنحصر وظيفته في التبليغ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: 20]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [سورة الرعد: 40].

يقول علي عبد الرزاق: «تلك مبادئ (الآيات المذكورة) صريحة في أنّ رسالة النبيّ ﷺ كرسالة إخوانه الأنبياء من قبل، إنّما تعتمد على الإقناع والوعظ، وما كان لها أن تعتمد على القوّة والبطش، وإذا كان قد لجأ إلى القوّة والرهبة، فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلى الدين، وإبلاغ رسالته إلى العالمين، وما يكون لنا أن نفهم إلّا أنّه كان في سبيل الملك، ولتكوين الحكومة الإسلامية، ولا تقوم حكومة إلّا على السيف، وبحكم القهر والغلبة» [عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، ص 75].

ويقول الحائري اليزدي: «ما يسمّى بالحكومة السياسية في نفسها، تتباين مع طبيعة الدين الإسلامي الذي هو وحي إلهي أبدي. وكان موقف القيادة الاجتماعية والسياسية لنبيّ

الإسلام في المدينة هو ترسيخ القاعدة الأولى للرسالة السماوية وتنقية الشرك والجهل، ولم يكن لتحديد الجغرافيا السياسية كحكومة للبلد الإسلامي، وتنفيذ الحكم بالقوّة من قبل السلطات التنفيذية يتعارض مع الأصل العقلاني لمسؤولية المكلّفين، ووفقًا لهذا الأصل فقد حذّر الله النبيّ في القرآن الكريم بقوله: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾ [سورة الغاشية: 21 و22]، أي أنّ وظيفة النبيّ التحذير والإنذار لا إعمال السلطة والملكية» [حائرى يزدى، حكمت و حكومت، ص 170 - 172].

تحليل ونقد

صحيح بأنّ الحكومة والملك تلازم القوّة والبطش، ولكنّ كلّ حكومة تسوق الناس وقد تكرههم إلى أهدافها الخاصّة. أمّا الرسالة والنبوّة فتحتاج إلى حكومة من أجل تطبيق أهدافها المهمّة كإقامة القسط وتنفيذ الحدود الإلهية وإيصال المجتمع إلى الكمال المنشود؛ فلا تتعارض الحكومة مع النبوّة، بل هي ملازمة لها. والاستدلال بالآيات المذكورة أقرب إلى المغالطة منه إلى الدليل؛ لأنّه يفهم من رجوع بني إسرائيل إلى نبيّهم بأنّهم طلبوا الحكومة العادلة التي تقوم بتطويرهم مادّيًّا ومعنويًّا، والآيات تدلّ على عكس ما استفاد مهدي بازرگان؛ لأنّنا نستنتج من رجوع كبار بني إسرائيل إلى نبيّهم، وعدم ردّهم من جانب النبيّ، أنّ الحكومة لا تتعلّق بالنبوّة، بل أجاب طلبهم واختار طالوت حاكمًا، ونستنتج من ذلك أنّ النبوة متلازمة مع الحكومة. [انظر: اسدى نسب، سكولاريسم از منظر قرآن، ص 243]

والمراد من الآيات التي تدلّ على الحرّية ونفي سلطة النبيّ ﷺ على الناس هو عدم قابلية الدين للإكراه من حيث الفكر والعقيدة، والمراد من عدم السيطرة هو السيطرة في ما يملك من الضغط الذاتي الذي يسيطر فيه على عقولهم ليغيّرها بطريقة ذاتية تكوينية، لا السيطرة كحاكم للناس في خطّ النظام العامّ الذي يدير به أمر الأمّة في كلّ جوانب حياتها. [انظر: فضل الله، من وحي القرآن، ج 5، ص 47]

وأمّا الاستثناء الذي جاء بعد الآيتين 21 و22 من سورة الغاشية بقوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ**﴾ [سورة الغاشية: 23]، فيحتمل أنّه استثناء من الضمير "عليهم" في الآية السابقة، أي: «إنّك لست عليهم بمصيطر إلّا من تولّى وكفر فأنت مأمور بمواجهته» [مكارم شيرازي، الأمثل، ج 20، ص 164].

وكذلك المراد من انحصار وظيفة النبيّ ﷺ ومهمّته في الإبلاغ، هو الحصر النسبي والإضافي، لا الحصر المطلق والحقيقي، أي يختصّ بالأمور الخاصّة وينحصر بتقيّد المهمّة

بدائرة الآيات المستشهد بها، مع الالتفات إلى أهمّية التبليغ، وهو بمعنى: أنت تقدر أيّها النبيّ على الوصول إلى غايتك وهدفك فقط مع اختيارهم. [انظر: اسدى نسب، سكولاريسم از منظر قرآن، ص 251 و252]

الحكومة منوطة بالمشيئة الإلهية وتشمل الصالحين وغيرهم

استدلّ بعض العلمانيين بآيتين هما: **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [سورة آل عمران: 26 و27]، وزعموا أنّهما تدلّان على إعطاء المُلك والسلطة للبشر، ويتمّ هذا الأمر كما يتعاقب الليل والنهار، وكسنّة الموت والحياة، وإيصال الرزق إلى الخلائق، وهي تتمّ بمشيئة الله، في حين أنّنا نعلم بأنّ إعطاء الرسالة يكون عبر التوافر على خصائص أخرى، كالاصطفاء والاجتباء [انظر: بازرگان، آخرت و خدا هدف بعثت انبياء، ص 30]؛ فالقرآن بنفسه يثبت عدم شموليته للجانب السياسي والحكومي.

تحليل ونقد

لقد خلط المستدِلّ بين المشيئة التكوينية والمشيئة التشريعية، فالمشيئة التكوينية كإيلاج الليل والنهار وإنزال المطر وغيرها، والمشيئة التشريعية كطلب الله من عباده، العمل على إتيان الحسنات وترك السيّئات مع الاختيار، فمع الالتفات إلى معاني تلك المشيئتين، فإنّ إعطاء المُلك للصالح والطالح خاضع لأسباب اجتماعية وسياسية وغيرها، وهي داخلة في المشيئة التكوينية، فبالمشيئة التكوينية يقال: حكومة الحكّام من الصالح والطالح تحدث بمشيئة الله تعالى، ولكنّ هذا لا يصبح دليلًا على التصحيح ومشروعية الحكومات، وبعبارة أخرى حكومة الطاغوت والظلم داخلة في المشيئة التكوينية من الله، وليست داخلة في المشيئة التشريعية [انظر: قدردان قراملكى، قرآن و سكولاريسم، ص 190]، ولكنّ حكومة الصالحين واختيار المؤمنين والمسلمين شخصًا صالحًا حاكمًا عليهم داخل في المشيئة التشريعية، وأمر به الله ﷺ في قوله: **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾** [سورة النساء: 58 و59]، فالحكومة التي فيها هداية الناس إلى الصلاح والفلاح هي أمانة إلهية لابد من إعطائها إلى أهلها. وأمر الله الناس بإطاعة ولي الأمر المطيع لله تعالى ولرسوله ﷺ، ونهى عن التحاكم إلى حكومة الطاغوت وإطاعته: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا**

أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء: 60]، **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** [سورة النحل: 36].

فقدان النصّ الحكومي والسياسي في القرآن

كثيرٌ من العلمانيين يعتقدون بأنّه لا توجد آية واحدة في القرآن الكريم تشير إلى حكومة سياسية معيّنة، أو حتّى تشير إلى النظام السياسي [انظر: العشماوي، الإسلام السياسي، ص 118]. ولم يقدّم الإسلام نظريةً خاصّةً به، ولو كان الإسلام ينادي بحكومة دينية تحكم باسم الله، لكان الله ﷻ على الأقلّ قد وضع بنفسه معايير النصب والتعيين وإقالة هذه الحكومة [انظر: الحسني، علمانية الإسلام والتطرّف الديني، ص 291 و292]. لم نجد فيما مرّ بنا من مباحث العلماء الذين زعموا أنّ إقامة الإمام فرض، من حاول أن يقيم الدليل على فرضيته بآية من كتاب الله الكريم، ولعمري لو كان في الكتاب دليل واحد لما تردّد العلماء في التنويه والإشادة به، أو لو كان في الكتاب ما يشبه أن يكون دليلًا على وجوب الإمامة لوجد من أنصار الخلافة من المتكفّلين ما يكفي [عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، ص25]. هذا وأمّا قوله ﷻ: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكًا نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ ۞ وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكًا قالُوا أَنّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾** [سورة البقرة: 246 و247] وغيرها من الآيات، فإنّنا لا نجد بأنّ الله فوّض حقّ الحكومة بعنوانه حقًّا لنبيّ وأوجب على الآخرين أن يتّبعوه. فلم نجد هذا في محلٍّ من القرآن أبدًا. [انظر:مجتهد شبستری، نقدی بر قرائت رسمی از دین، ص 516]

تحليل ونقد

ليست هناك ضرورة بأن تأتي نفس تلك الاصطلاحات السياسية والحكومية والنظامية في القرآن الكريم، ولكن كما ذكرنا هناك عدّة من التعاليم والمعارف القرآنية، كإقامة القسط والعدل: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ ... وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** [سورة يونس: 47]، **﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** [سورة المائدة: 42]، والأمر بإعداد القوّة العسكرية والجهاد: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ**

﴿الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ﴾ [سورة الأنفال: 60]، ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [سورة النساء: 75]، ورفع اختلاف الناس بواسطة إرسال الرسل: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [سورة البقرة: 213]، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: 59]، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [سورة الشورى: 10] وغيرها كلّها تستلزم تأسيس الحكومة، والنظام السياسي المقتدر. نعم، الحكومة ليست من طبيعة النبوّة وليست مندرجةً في ماهيتها، بل الحكومة ورفع اختلاف الناس وإقامة القسط في المجتمع من أهداف النبوّة وإرسال الرسل كما يظهر من الآيات المذكورة. [قدردان قراملكى، قرآن و سكولاريسم، ص 162]

ربط الدين بالسياسة يؤدّي إلى الاختلاف في الدين

جوهر الدين وروحه أنّه يوحّد ولا يفرّق، والدين الإسلامي هو دين (التوحيد)، أمّا السياسة فجوهرها وروحها أنّها تفرّق. كما أنّ السياسة تقوم حيث يوجد الاختلاف، فهي أقرب إلى أن تكون (فنّ إدارة الاختلاف) منها إلى أيّ شيء آخر، ومن هنا كان ربط الدين بالسياسة ـ أيًّا كان نوع هذا الربط ودرجته ـ يؤدّي ضرورةً إلى إدخال جرثومة الاختلاف إلى الدين [عابد الجابري، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، ص117]، فلم يشمل الدين الإسلام ومصدره الأوّل (القرآن) السياسة بمعناها المذكور.

تحليل ونقد

يظهر ضعف هذا الدليل حينما نرجع إلى تعاريف السياسة، لا سيّما عند مفكّري المسلمين، فلم يعرّف شخص بأنّ السياسة تعني إيجاد التفرّق والاختلاف بين المجتمع، وإن كانت السياسة الفاسدة وغير الصحيحة هكذا، ولكنّ السياسة الصحيحة هي: عبارة عن إدارة الحياة البشرية والانتقال بها إلى حياة المعقول لأجل الوصول إلى أفضل أهدافها [جعفرى، حكمت اصول سياسى اسلام، ص 93]، أو ما كان الناس معه فعلًا أقرب إلى الصلاح (أو الصواب) وأبعد عن الفساد [الأقطش، في السياسة الشرعية، ص 20]، أو السياسة هي قيادة المجتمع وفق استراتيجية وملاحظة كلّ مصالح المجتمع وأبعاده وجميع أبعاد الإنسان، والهداية إلى شيء يكون في صلاح المجتمع [الخميني، تفسير سورة الحمد، ص 246]، فالإسلام والقرآن يدير المجتمع بالسياسة الصحيحة، ويدعو الناس إلى الوحدة والأخوّة وينهى عن التفرّق: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: 103]، وأساس الحكومة الدينية

والقرآنية هو إيجاد الوحدة وإقامة القسط: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات: 10]، ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [سورة البقرة: 213].

نستنتج ممّا ذكرنا بأنّ آراء العلمانيين حول الشمولية لجميع جوانب حياة الإنسان مخدوشة؛ لأنّها:

أوّلًا: بُنيت على أساس الرؤية العلمانية في كلّ المجالات الحيوية، وهذه الرؤية التي ترفض كلّ تدخّلٍ للدين في الدنيا، تتعارض مع الرؤية القرآنية التي قدّمت تصوّرًا عن الشؤون الدنيوية، واعتبرت الحياة وما يتعلّق بها تؤثّر في السعادة وكمال الإنسان.

وثانيًا: تفاسيرهم وأدلّتهم من آيات القرآن في فصل الدين عن السياسة، وانفصال الاجتماع والسياسة والحكومة، كلّها إمّا تفاسير بالرأي وإمّا تفسير من دون الالتفات إلى سياق الآيات المستدلّ بها، ودون ملاحظة الآيات المفسّرة الأخرى، وأدلّتهم العقلية مغالطات بحتة.

قائمة المصادر

الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، بيروت، الموسوعة العربية للدراسة والنشر.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ.

الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ.

الأقطش، عبد المجيد محمد، و ...، في السياسة الشرعية، دار المسيرة، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى، 1431 هـ.

ايازى، سيدمحمدعلى، جامعيت قرآن، نشر كتاب المبين، رشت ـ ايران، چاپ سوم، 1380 ش.

باربور، ايان، علم و دين ترجمه بهاءالدين خرمشاهى، مركز نشر دانشگاهى، تهران، چاپ سوم، 1379 ش.

بازرگان، مهدى، آخرت و خدا هدف بعثت انبياء، مؤسسة خدمات الثقافى رسا، چاپ يكم، 1377 ش.

جعفرى، يعقوب، تفسير كوثر، موسسه انتشارات هجرت، قم ـ ايران، چاپ يكم، 1376 ش.

حائرى يزدى، مهدى، حكمت و حكومت، نسخه الكترونيكى، ويرايش سوم، 1395 ش.

الحنفي، عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1420 هـ.

الحيدري، كمال، أخلاقنا، بقلم الدكتور طلال الحسن، مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة، بغداد، 2016 م.

رضايى اصفهانى، محمدعلى، تفسير قرآن مهر، پژوهشهاى تفسير و علوم قرآن، قم، چاپ يكم، 1387 ش.

زارع قراملكى، محمد، اصول تفكر سياسى در قرآن، كانون انديشه جوان، تهران، چاپ يكم، 1389 ش.

سروش، عبدالكريم، بسط تجربه نبوى، مؤسسه فرهنگى صراط، تهران، چاپ ششم،

1392 ش.

سيد قطب، ويژگى هاى جهان بينى اسلامى، ترجمه سيدمحمد خامنه اى، توليد كتاب، چاپ يكم، 1388 ش.

ضاهر، عادل، الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثانية، 1998 م.

الطباطبائي، محمدحسين، القرآن في الإسلام، هجرت، قم، الطبعة الثانية، 1369 ش.

الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، 1390 هـ.

الجابري، محمد عابد، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 2004 م.

عبد الرزاق، علي، الإسلام وأصول الحكم (بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام)، دار الكتب المصري، الطبعة الثانية، 2011 م.

العشماوي، محمد سعيد، الإسلام السياسي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، 2004م.

الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420 هـ.

فرهيخته، شمس الدين، فرهنگ فرهيخته (واژه ها و اصطلاحات سياسى ـ حقوقى)، انتشارات زرين، تهران، چاپ يكم، 1377 ش.

القرضاوي، يوسف، الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1414 هـ.

كريمى، مصطفى، جامعية القرآن الكريم، تعريب: مؤسسة القرآن للثقافة الإسلامية، توزيع: مؤسسة المصباح الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1436 ش.

محسنى، محمد آصف، فوايد دين در زندگانى، كابل، چاپ دوم، 1385 ش.

محمدى رى شهرى، محمد، دنيا و آخرت از نگاه قرآن و حديث، تحقيق سيدرسول موسوى، سازمان چاب و نشر دار الحديث، چاپ دوم، 1386 ش.

مصباح يزدى، محمدتقى، نگاهى گذرا به نظريه ولايت فقيه، انتشارات مؤسسه آموزشى

و پژوهشی امام خمینی، چاپ دوازدهم، 1386 ش.

مكارم شيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قم، الطبعة الأولى، 1421 هـ.

المودودي، أبو الأعلى، الخلافة والملك، ترجمة أحمد إدريس، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، 1398 هـ.

الموسوي، هاشم، النظام الاجتماعي في الإسلام، طهران، الطبعة الثانية، 1417 هـ.

المقالات:

مناقب، سيد مصطفى و ...، نسبيت فرهنگى و نقد آن با تأكيد بر آموزه هاى قرآنى، پژوهشگاه علوم انسانى و مطالعات فرهنگى، سال 7، شماره 2، تابستان 1395 ش.

فخر زارع، سيدحسين، جامعه از منظر قرآن، پژوهشنامه معارف قرآنى، سال 5، شماره 16، بهار 1393 ش.